دروس على كتاب الدارس

« في المدارس » (١)

١

أيها السادة

إن تاريخ كل أمة سواء كان مجيدا أو غير مجيد لا يخلو مستقبله من ارتباط بماضيه لا من حيث التشابه بين طرفيه بل من حيث النتائج التي تترتب عليها نهضة الامم أحيانا وتغيير مجرى الحياة الاجتماعية بأن تسرع بخطى الشعوب الى مراقي الصعود

معناها اذا كان ماضي الامة عظيما محترما في التاريخ تحرص على أن يكون أعظم احتراما في حاضرها أو على أن تسترد ذلك الاحترام اذا فقدت شيئا منه واذا كان ماضيها سيئا غير محترم في التاريخ تدأب على التخلص منه وتطلب لنفسها حاضرا أسعد منه . فالنتيجة واحدة في الحالين ولكن لمن ؟ ومن يتحصل على مثل هذه النتيجة من الامم ؟

تحصل عليه أمة تعلم ان لها تاريخا فتدرسه وماضيا فتبحث فيه وترجع اليه لاسيما اذا كان تاريخا مجيدا له آثار معروفة في الوجود وأثر محقق في الاجتماع والامة

(١) القى هذا الخطاب العلامة المؤرخ رفيق بك العظم في حفلة حافلة في مدينة دمشق ارصد ريعها لجمعية البعثات العلمية

كالفرد فخورة بالماضي الجميل اذا تمثل لها فنخ فيها من روحه فملأها نشاطا ودفعها الى الامام اشواطا

وان أمة لا تعرف تاريخها فأحر بها أن ينكرها الزمان وتذري بها الشعوب لجهلها بماضيها وان تنكرها الانسانية وتنكرها السماء والارض

إن المدنية الاسلامية التي رفع منارها أسلافنا الطاهرون وغيرت شكل الارض ومجرى الاجتماع كان لمدينتكم هذه حظ وفير منها ولا سيما في التوفر على انشاء معاهد العلم ودور التربية والتهذيب

هذا أيها السادة ما دعاني لان اقف بينكم خطيبا افتح صحيفة من ماضي التاريخ فيما يتعلق بأسلافكم الغابرين ومدينتكم الغيحاء وفيها ذكرى للذاكرين ، وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين .

ان هذه الذكرى مأثورة في هذا الكتاب الضخم المشتمل على الف وثلاثمئة وستين صحيفة وهو كتاب (الدارس في المدارس) تأليف المؤرخ العلامة الشيخ محمد بن محيي الدين النعيمي وهو خاص بما انشئ من معاهد العلم والمساجد ودور العجزة (التكايا) في دمشق وقد بلغ عدد ذلك مئتين وبضعا وثمانين . لو وزعت المدارس منها على السنين منذ انشاء أول مدرسة في القرن الخامس أي سنة ثلاث وتسعين وأربعمئة الى عهد المؤلف في أوائل القرن العاشر لاصاب دمشق كل سنتين مدرسة تقشأ أو دار للعجزة والمرضى تشاد هذا فضلا عما أنشئ من المدارس بعد ذلك التاريخ ولم يدركه المؤرخ المذكور وهذا فهرست الكتاب فتلو عليكم بعضا من أسماء المدارس التي جاءت فيه ولا أطيل خوفا من ضيق الوقت .

أما تواريخ انشاء هذه المدارس بالضبط والاوقاف التي حبست على الطلبة فيها والعلماء الذين نبغوا منها ودرسوا فيها كل هذا مذكور في صلب الكتاب وليس في الوقت متسع لتلاوته عليكم كما ترون من حجم الكتاب وحسبكم ان من درسوا في هذه المدارس وتولوا رياستها أو نبغوا فيها من علماء الشريعة مثل الحافظ الذهبي صاحب التاريخ المشهور والامام ابن تيمية صاحب التآليف المشهورة وقاضي القضاة صدر الدين الانزهي صاحب الجامع الصغير وغيرهم من مشاهير العلماء ومن علماء

الطب مثل الرؤساء ابن أبي أصيبعة صاحب تاريخ الاطباء ومهذب الدين بن الحاجب ونجم الدين القبودي وموفق الدين بن المطران ومهذب الدين الدخوار وعماد الدين الدنيسري واضرابهم

ومن علماء العقليات والرياضيات والموسيقى مثل محمد بن أبي الحكم الباهلي وعز الدين السويدي وأبي الفضل الحلوني المهندس الذي كان باب البيمارستان النوري القائم الى اليوم من عمل يده واضرابهم

وها نذا اقرأ لكم مثالا واحدا من ترجمة هؤلاء الرجال فاسمعوا ما قال تاريخ المدارس هذا في ترجمة أفضل الدين ابن أبي الحكم نقلا عن الصفدي قال :

« محمد بن عبد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي » هو أفضل الدين أبو المجد ابن أبي الحكم من الحكماء المشهورين كان طبيبا حاذقا وله يد طولى في الهندسة والنجوم (أي علم الفلك) وله في سائر الآلات المطربة يد عمالة وعمل ارغنا وبالغ في اتقانه وقرأ على والده وغيره في الطب وكان في دولة نور الدين بن الشهيد ولما عمر البيمارستان والمستشفى النوري بدمشق جعل أمر الطب فيه اليه الخ ما قال

هؤلاء الرجال الذين ذكرتهم لكم وهذا الفاضل الكبير منهم وعدد كثير مثلهم من أهل الشهرة بالعلم والفضل درسوا في هذه المدارس أو تخرجوا على رؤسائها ومشايخها ثم ملأوا المكتبة العربية بالمؤلفات النافعة في كل فن ومن واجبكم منكم كتاب الكواكب لابن عروة الحنبلي في اكثر من مئة مجلد ، وتاريخ الحافظ ابن عساكر في اكثر من عشرين مجلدا وهما موجودان اليوم في المكتبة العمومية في مدرسة الملك الظاهر بدمشق وقاس عليهما ما ألفه علماء تلك القرون الأفاضل وما قبلها من الكتب في علوم الشريعة والادب واللغة والتاريخ والتراجم والفلك والطب والرياضيات كالهندسة والحساب وغير ذلك من العلوم يعلم مقدار ما لهذه المدارس ومؤسسيها من الفضل على الامة وما للنابغين فيها من الاثر العظيم في الوجود بما سهروه من الليالي الطوال في التحرير والتحبير وما عانوه من التعب في وضع كتب العلم لافادة الناس حتى ملأوا بها المكاتب ونشروا العلم وما قولكم في ان عالما واحدا من علماء الطب وهو موفق الدين بن المطران المتوفى سنة سبع

وثمانين وخمسمئة ترك في مكتبته عشرة آلاف مجلد في الطب والعلوم الحكمية كما ذكر ذلك ابن أبي اصيبعة في ترجمة الموما اليه

ولا يظنن أحدكم ان هذه المدارس كانت مدارس دينية فقط وان اكثر علمائها وطلبتها من طلبة العلوم الشرعية وآلاتها

كلا فان فيها مدارس لغير العلوم الشرعية كالطب مثلا ومن هذه المدارس المدرسة الدخوازية والدنيسرية والبودية كما سترون ذلك فيما يأتي ان شاء الله

فضلا عن هذا فقد اخبرنا التاريخ ان معاهد العلم كانت مشاعا بين طلابه من كل فن وان الطبيب أو الفلكي مثلا كان يلقي دروسه في أي مدرسة كانت من مدارس العلم له فيها وظيفة بل في الجوامع والمساجد ايضا لانها كانت قبل ان توجد المدارس على شكلها المعهود أي قبل القرن الرابع أشبه بمدارس العلم بل هي المدارس عينها وما زالت كذلك معاهد للعبادة والعلم معا الى اليوم كما تعلمون

واذكر لكم مثالا واحدا على ان المدارس كانت شائعة لطلاب كل علم ما نقله ابن أبي أصيبعة في ترجمة رفيع الدين الجيلي قال : « وكان مقيما بدمشق وهو فقيه في المدرسة النورية داخل باب النصر وله مجلس للمشتغلين عليه في انواع العلوم والطب وقرأت عليه شيئا من العلوم الحكمية »

واعلموا أيها السادة ان كثيرا من علماء الشريعة مثل الجيلي جمعوا بين العلوم الشرعية والعقلية والطب والفلك والرياضيات وكلهم من خريجي هذه المدارس بالضرورة ومن جاء ذكرهم من هؤلاء في هذا التاريخ واذكره مثالا للباقين احمد بن الحسين الدمشقي واليكم ما جاء من ترجمته في هذا الكتاب نقلا عن ابن كثير قال :

« الجمال المحقق احمد بن عبد الله بن الحسين الدمشقي » اشتغل على مذهب الشافعي وبرع فيه وافتى وأعاد وكان فاضلا في الطب وقد ولي مشيخة الدخوازية (مدرسة طبية) لتقدمه في صناعة الطب على غيره وعاد المرضى بالبيمارستان النوري على قاعدة الاطباء وكان مدرسا بالشافعية بالمدرسة الفرخشاهية ومعيدا بعدة مدارس الخ ما قال

هذا يدلكم على ان العلوم كانت متشابكة بين العلماء وان العالم بالشرع قد يكون عالما بعلوم أخرى من العلوم النظرية والعملية كالفلسفة والطب والموسيقى والفلك والرياضيات وغيرها من العلوم التي قامت على دعائمها المدنية الاسلامية وكانت الحلقة الوسطى بين المدنية القديمة والمدنية الحديثة حتى اعترف بفضلها على التمدن الغربي كثير من علماء التاريخ كدريبر ومنتسكيو وكوستاف لوبون وافردوا للمدنية الاسلامية كتبا خاصة اتوا فيها على ذكر ما تركه التمدن الاسلامي من آثار الترقي والعلم التي يجهلها أهل هذا العهد يا للاسف والعار!

نحن الآن أيها السادة بصدد علماء دمشق في القرون الوسطى وانما هم حلقة من سلسلة ذلك التمدن الاسلامي الذي اخفى عليه الزمان واذا سمحتم لي فاني اختم كلامي بنبذة من تاريخ تلك السلسلة بعد استيفاء الكلام على كتاب الدارس هذا ان شاء الله

٢

علمنا مما سبق عدد المدارس ودور العجزة التي أنشئت في دمشق ولكن من الذي انشأ هذه المدارس ورفع بنيانها وادر الخيرات عليها وأنفق من ماله على طلابها اهي الحكومة أو الافراد او الجماعات؟

بلغ بنا الضعف ان صرنا كالاطفال نطلب كل شيء من الحكومة كما يطلب الطفل كل شيء من والديه اما اسلافنا فلم يكونوا كذلك بل كانوا استقلاليين اكثر منهم اتكاليين يعرفون قيمة الاعتماد على النفس فكان الفرد الواحد يقوم بما تقوم به الجماعة ولا يطلب من الحكومة امرا. ولهذا فان كل ما جاء ذكره في هذا الكتاب من المساجد والتكايا والمدارس انما أنشأه الافراد وقام بمثل اهل السخاء والجود من اسلافكم الطيبين لمحض الخير وارادة نشر العلم وخدمة الوطن والدين

لم يختص بهذا العمل الجليل والشرف الرفيع الملوك والامراء وذوو السلطة كما قد يتوهم البعض كلا بل كان الافراد من كل الطبقات من أهل اليسار يتسابقون الى تشييد المعاهد العلمية حسبة لله وحبا بعمل الخير واستبقاء لذكر الحسن في الوجود فالتجار والعلماء والسيدات هم الذين انشأوا هذه المدارس، كل مدرسة يؤسسها

شخص بمفرده ويجلس عليها من ملكه مايكفي ريبه لبقائها، بل أقول لكم والخجل يكاد يخفي من التكلم والحزن يوشك ان يعقد لساني ان الصبيان عبدان أسلافكم أيها السادة شيدوا بأموالهم بعض هذه المدارس ورفعوا منار العلم فبالفضيلة كم ترفع الصبيان الى منزلة السادة في حين يحط السادة الى منزلة الصبيان !

ان الصبيان كانوا ارفع نفوسا واسخا كفوفا منا الآن بالبخل والخسران

ان الكلام وحده لايغني عن برهان . وانكم تنتظرون مني الدليل على هذا البيان

واليكم امثلة من عمل العلماء والتجار والسيدات والصبيان

قال المؤرخ في فصل عقده لمدارس الطب :

﴿ المدرسة الطبية الدخوارزمية ﴾

المدرسة الدخوارزمية بالصاغة العتيقة بقرب الخضراء قبلي الجامع الاموي انشأها مهذب الدين عبد المنعم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار في سنة احدى وعشرين وستمئة بالصاغة العتيقة كما تقدم وأول من درس فيها واقفها ثم من بعده بدر الدين محمد بن قاضي بعلبك ثم عماد الدين الدنيسري وهو بها الى الآن الخ ...

﴿ المدرسة الدنيسرية ﴾

غربي البيمارستان النوري والصلاحية بآخر الطريق من قبله قال الذهبي في العبر في اخبار سنة ست وثمانين وستمئة

« عماد الدين ابو عبدالله محمد بن عباس الربعي » الرئيس الطبيب والد دنيسر سنة ست مئة وسمع بمصر من علي بن مختار وجماعة وتفقه للشافعي وصحب البهاء زهيرا وتأدب به ووصفه ، الى ان قال نقلا عن الاسدي « العماد محمد بن عباس الحكيم البارع في الطب صاحب المدرسة للاطباء بالقرب من بيمارستان نور الدين الشهيد » الخ

﴿ المدرسة اللبودية ﴾

« اللبودية النجمية مدرسة خارج البلد ملاصقة لبستان الفلك المشيري انشأها نجم الدين يحيى بن محمد بن اللبودي في سنة اربع وستين وستمئة » الى ان قال نقلا عن ابن ابي اصيبعة « كان علامة وقته وأفضل أهل زمانه في العلوم الحكمية » الخ ...

هذا عمل العلماء واسمعوا مثالا من عمل التجار في سبيل الخير والعلم والمنفعة العامة لم يعمل مثله احد من اغنياء هذا الزمان :

﴿ المدرسة المزلقية ﴾

المزلقية بطريق مقابر باب الصغير الآخذ الى الصابونية انشأها تاجر اخلاص الشريف شمس الدين ابو عبدالله محمد بن علي بن ابي بكر المعروف بابن المزلق ميلاده سنة اربع وخمسين وسبع مئة وكان ابوه لبابا ادركه جماعة وهو يباشر بلبنة عند جامع يلبغا فنشأ ولده هذا ودخل في البحر وحكى عن نفسه ان اول سفرة سافرها كسب فيها مئة الف دينار وثمان مئة درهم وافتحت عليه الدنيا وعمر املاكا كثيرة وانشأ على درب الشام الى مصر خانات عظيمة بالقنيطرة وجسر يعقوب والمنيةوعيون التجار. انفق على عمارها مايزيد على مئة الف دينار وكل هذه الخانات فيها الماء وجاءت في غاية الحسن ولم يسبقه احد من الملوك والخلفاء الى مثل ذلك وهو صاحب المآثر الحسنة بدرب الحجاز ووقف على سكان الحرمين الشريفين الاوقاف الكثيرة الحسنة وعين للحجرة الشريفة على الساكن بها افضل الصلاة واتم السلام الشمع والزيت في كل عام الى آخر ماقال ...

وهذا مثال آخر لتاجر غيره ايضا

﴿ المدرسة الرواحية ﴾

شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الاموي ولصيقة شمالي جيرون وغربي الدويلق وقبلي السيفية الحنبلية : قال ابن شداد بانيها زكي الدين ابو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة وقال الذهبي في تاريخه العبر في من مات سنة اثنتين وعشرين وستمئة «والزكي ابن رواحة هبة الله بن محمد الانصاري التاجر المعدل واقف المدرسة الرواحية بدمشق وأخرى بحلب» الخ

ومن امثلة عمل النساء

﴿ المدرسة العالية ﴾

العالية شرقي الرباط الناصري غربي سفح قاسيون تحت جامع الاثرم واقفتها الشيخة الصالحة العالمة اللطيفة بنت الشيخ الناصح الحنبلي المتقدم ذكره في المدرسة

التي قبل هذه (وهي المدرسة الشيخية بانيها الشيخ ابو عمر الكبير) وكانت فاضلة لها تصانيف وهي التي اوشدت ربيعة خاتون بنت نجم الدين ايوب اخت الملك صلاح الدين الى وقف المدرسة الصاحبية بقاسيون على الحنابلة الخ ...

ومن امثلة عمل الجدان

﴿ المدرسة الصلاحية ﴾

الصلاحية داخل باب النصر والجامية قبلي الشراونية بشرق ، قال القاضي عزالدين بانيها صارم الدين ابو بكر مملوك قايماز النجيبي ورأيت مرسوما بعتبتها ماصورته

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« هذا المكان المبارك انشاه الطواشي الاجل صارم الدين جوهر بن عبدالله المعتقي الست الكبيرة الجليلة عصمة الدين عذرى ابنة شاهنشاه رحمها الله تعالى الخ »

اوأيتم ايها السادة بماذا قامت هذه المدارس وبمن وكيف ان الافراد من اسلافكم كانوا يعملون مالا يعمله الجماعات منكم اليوم؟ ان الافراد هم الذين ينهضون بالامم وان المدنية الاسلامية التي تلوت عليكم حلقة من سلسلتها العظيمة كان للافراد شأن عظيم في وضع دعامتها وتشييد بنيانها

تعلمون ايها السادة ما كان لترجمة كتب أهل التمدن القديم كاليونان والفرس الى العربية من الاثر الكبير في تأسيس المدنية الاسلامية في بغداد على عهد الخلفاء العباسيين وقد يتوهم البعض ان الذي عني بترجمة هذه الكتب انما هم الخلفاء وحدهم واخصهم امير المؤمنين المأمون، والحال ان الكثير من الافراد و رجال الفضل والنبل من الامة بدا لاتكر في هذا السبيل

وهذا يدلكم على ان عمل الاشخاص منفردين لايقل تأثيرا في الهيئة الاجتماعية عن عملهم مجتمعين . ولذا لاأبالغ ان قلت ان نوابغ الامة الذين خدموا بذكائهم وعلمهم المدنية وشيدوا اركانها الرفيعة انما قاموا بهذه الخدمة وقامت تلك المدنية بفضل أهل السخاء والجود من محبي العلم والترقي وانصار النجاح الذين كانوا ينفقون من مالهم على المترجمين للكتب العلمية الى اللغة العربية . ومن هؤلاء الافاضل الاجواد

الذين رصدوا جزأ كبيرا من اموالهم على المترجمين للكتب العلمية في تلك العصور علي بن عيسى العباسي ومحمد بن موسى بن شاكر الرياضي الشهير وعلي بن يحيى الكاتب وابن المدبر الكاتب وثاوري الاسقف ومحمد بن عبد الملك الزيات وبختشوع الطبيب والعدد الكثير من امثالهم المولعين بالترقي والعلم الذين كان ينفق كل واحد منهم اموالا طائلة على نقلة العلوم الى اللغة العربية حتى لقد نقل ابن أبي اصيبعة عن محمد بن عبد الملك الزيات انه كان ينفق في الشهر الواحد على المترجمين الف دينار قال هذا فضلا عما كان ينفقه الخلفاء من بني العباس لهذا القصد

وإنا والله لنتمنى ان نجمع هذه الالف دينار في كل شهر من الف غني من اغنيائنا اليوم لتنفق في سبيل نشر العلم وترقية الناشئة من ابناء الاوطان ولو فعلوا ذلك اليوم لعوضها عليهم ابناؤهم اضعافا مضاعفة في الغد بل لوفعل ذلك اهل كل ولاية عثمانية لاصبحت المملكة العثمانية بعد عشرين سنة جنة تعلوفيها العلم وسباجها القوة والحياة

ولنعد الى ما كنا بصدده فنقول :

بمثل هذا البذل على ترجمة كتب العلم ونشرها بين الكافة والاستفادة منها ظهر اركان النهضة في الشرق الذين ارتفع بهم شأن التمدن الاسلامي وذلك مثل بني موسى بن شاكر المهندسين الرياضيين في عصرهم وبني بختشوع وبني سهل وبني ماسويه وبني حنين وبني ثابت بن قرة وبني زهرون وابو عثمان الدمشقي وابن كزنيب ويحيى بن عدي المنطقي وابي الفرج الطبيب وابي الريحان البيروني والشيخ الرئيس ابن سينا وابي نصر الفارابي والفخر الرازي واضرابهم من العلماء الذين ظهروا في الشرق في عصور متفاوتة إبان التمدن الاسلامي

ومثل بني زهر ويحيى بن السمينة وابي القاسم المرحيطي امام الرياضيين والفلكيين في عصره وابن السمح القرطاطي المهندس وسعيد ابن عبد ربه وابي جعفر الترحالي وابي الوليد بن رشد وابنه محمد واضرابهم ممن ظهروا كذلك في الغرب

ومثل بن الهيثم البصري صاحب التآليف الغزيرة في الرياضيات والفلك والمبشر بن فاتك وعلي بن رضوان وتلميذه افرائم ابن الزفات والشيخ السديد رئيس

الاطباء شمس الرئاسة بن جميع الاسرائيلي ورشيد الدين أبي خليفة وأمثالهم ممن ظهروا في مصر

كل هؤلاء من علماء الفلسفة والطب والرياضيات والحكمة الطبيعية وغيرها من العلوم ونسبتهم كنسبة واحد في المئة ممن ظهروا في مصرهم وبعده في الشام وبغداد ومصر وفارس والمغرب والروم أي آسيا الصغرى وغيرها من الامصار الاسلامية في الشرق والغرب وانما وضع لهم الاساس افراد من الامة قدروا قدر العلم فشيدوا معاهده وترجموا كتبه واكرموا أهله فتكون من عمل أولئك وهؤلاء وتعاونهم جيلا بعد جيل بناء تلك المدنية العظيمة التي فقدناها بعدُ ولم نستطع اللحاق بأبناء المدن الحديث لاعراضنا عن العلم وغفلتنا عن تحدي الامم الراقية وقبض ايدينا عن امداد معاهد العلوم وتشييد دورها مع انا قد يطلب منا الآن ونحن جماعات فلا نجيب ما كان يسعله الافراد من اسلافنا من تلقاء أنفسهم وبحسن رغبتهم بالعلم والمعارف وحبهم للارتقاء فما هذا الفرق العظيم

وبالجملة أيها السادة إننا أمة ذات ماض مجيد وتاريخ جميل وقد ترك لنا أسلافنا درسا لا يمحوه الزمان ، وقد نقش في كل زاوية من المشرق ومكان ، فلا يبلغ بنا ضعف النظر أو ضعف القلوب والهمم وفساد الاخلاق واستحالة الدم الى أن ننتاسه ولا نقرأ صحفه الزاهية التي يدعونا كل سطر منها الى التذكر والتفكر والسعي الحثيث الى الترقي الذي مناطه العلم . والعلم يحتاج الى المال . فلنال المال ؛ الكرم الكرم ؛ الانتباه الانتباه ؛ والا قضي علينا بالدمار ولحق بنا العار وتبرأ منا أسلافنا الطاهرون ولا يكون ذلك ان شاء الله ما دام فينا الكرام الغيورون والرجال المفكرون والسلام عليكم .